المسيح يموت ويقوم ليتألّه الإنسان

جهاد نعمان

ان المسيحي الذي يدرك، بفضل السيد المسيح، مَن هو الانسان ومَن هو الله، يعتقد تالياً ان المطلق الحي يحبه حباً مطلقاً. والحال ان المحبة، في جوهرها، تغيّر حالة ما تصيبه من فيضها. المحبة المطلقة تغيّر الحالة تغييراً مطلقاً، وفيما تغيّر، تؤلّه، ولا تؤلّه الا عبر هذا التغيير.

التغيّر ذاك يعني الانتقال من حالة الى أخرى. انه انتقال من حالة البشري الى حالة الله. ولكي يتحوّل الانسان إلهاً، لا يكفي أن يغدو الله انساناً بل ينبغي أن يموت الله المتجسد ويقوم. والقيامة تعني لا العودة الى الحياة السابقة الحياة (أي مجرد أحياء جثة) بل الانتقال الى حياة مختلفة كل الاختلاف.

أن نموّ الكائن الحي لا يحصل بوساطة التعظيم او التكبير او الدعم لما هو عليه، وانما بوساطة التغيير. وهنا قانون عام نتحقق منه أولاً في المستوى البيولوجي. فالفراشة ليست دودة عظيمة، وسنبلة القمح ليست حبة كبيرة. "... ان حبة الحنطة التي تقع في الارض تبقى وحدها اذا لم تمت. أما اذا ماتت فانها تأتي بثمر كثير" (يوحنا 24: 12). ان الاقلاع عن غريزة البقاء والموافقة على التغيير هما شرطا البقاء بالذات. ما من بقاء للكائن الحي بلا نمو؛ وما من نموّ بلا تغيير؛ وما من تغيير بلا موت.

ويمكننا أن نتحقق من ذلك القانون أكثر فأكثر في المستوى الروحي. فحياة الروح تحوّل دائم. المقصود انعكاس الامتداد الفطري. فيتحوّل الوعي عن فيض الغرائز ويتجه شطر القيم التي لا يؤلف معيارها النجاح الزماني والمكاني، وإنما الوحدة والحقيقة والتواصل. انه الانتقال من الحيواني الى الانساني، ومن الطبيعة الى الحرية، ومن اللاجوهري الى الجوهري.

والقانون هو ايضاً حقيقي على وجه أعمق بكثير في مستوى التأليه. وينبغي هنا ان تُستأصل مركزية الأنا الطبيعية التي تستغل قوة الله في سبيل الذات. الحياة الإلهية التي تبلّغ الانسان بوساطة الله الذي ليس سوى محبة مطلقة، ليست في حال من الاحوال امتداداً مغبوطاً للحياة الارضية. ان ما نُطلق عليه تسمية "سماء" ليس أنانيتنا وقد أعطيت أبعاد اللامتناهي. ان سماء كهذه لهي على جانب مطلق من التناقض والاخفاق.

ان سبيل التغيير، من جانبنا، شطر الله، هو سر كبير. وان تصوّره لا يمكن أن يكون الا من نسج الخيال، لأنه لا يتألف الا انطلاقاً من عناصر سابقة الموت. وهذا التصوّر يبقى دوماً، عندما نقصد المستقبل، اسقاطاً مضخماً للحاضر كما هو.

وعندما يَلزم هذا الـ"كما هو" ان يزول على وجه الاطلاق، يمسي ذلك "التصوّر" مستحيلاً!

فلينصرنا الله على قوة الموت التي تستحوذ علينا، أي على الاحباط والحزن واليأس والخوف من المرض والفاقة والشيخوخة، لئلا يظل العيد يوماً واحداً (أو يومين!)، ونرجوه من بعد خطايانا، بتواصل الايام، ونثق ليس حصرا بقدرتنا التي هي على قدر من الزغل، ولكن بقدرته تعالى. فلنعلن، بدءاً من فصح هذه السنة الذي نعيّده في يوم (أو يومين!) محدّد عبورنا جميعاً الى الحياة عبر توبتنا وتحولنا الى الرجاء.